العرب
الخميس 2020/10/29
السنة 43 العدد 11865

السوري عبيدة فياض يطلّق زمن التطبيع مع كورونا

يشكّل الفنان التشكيلي السوري عبيدة فياض من خلال لوحاته حالة مُلتبسة وشديدة المعاصرة، حيث يصعب تمييز القاتل من المقتول ويصعب الفصل بين الواقع والخيال الكابوسي. يكفي استعراض جملة من اللوحات للتيقّن من مسار تاريخي تبلور نصا وشكلا على وقع حوادث الوطن والتحوّلات العالمية.

ميموزا العراوي
ناقدة لبنانية

غالبا ما يقترن اسم فنان باسم والده أو والدته، لاسيما وإن كان فنانا مميّزا. وينغمس عادة العديد من النقاد في متاهة إقامة التناظر بين الاثنين. وفي حين يعتبر الفنان المعنيّ أن في ذلك تبخيسا من قيمة عمله الفني، يجد المتمعّنون في ذلك أمرا لا مهرب منه.

الفنان السوري عبيدة فياض لا يخرج عن هذه المعادلة، وذلك ببساطة لأنه ابن الفنان التشكيلي عبدالحميد فياض المتميز بنص فني بالغ الحضور، ويمكن محاولة وصفه بكلمتين: مكمن حراريّ.

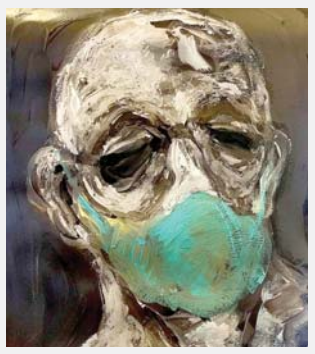

الأقنعة الصحية في لوحات الفنان السوري استحالت إلى تدرّج طبيعي ومنطقي لمسار طويل من الفواجع الإنسانية

غير أن بعد نظرة أوليّة على مجمل أعمال الفنان عبيدة فياض، وخاصة تلك التي نشرها على صفحته الفيسبوكية، يمكن وضع اليد على الفارق الكبير بين النصين وعلى مستويين: الأول أنه في حين يعمد الفنان عبدالحميد فياض إلى ما يشبه اقتطاع مشاهد من الواقع من دون تراتبية زمنية، أو إشارة تشكيلية مباشرة إلى زمن ومكان "الواقعة" الأصلية التي انطلق منها وحقّق بها لوحته، يعمد الفنان عبيدة فياض إلى أن يستل من كل لوحة ينجزها خيطا يكمّل عبره حبك ما يسرده في لوحة تالية ليست تتمة بقدر ما هي صدى لسابقاتها.

صدى مُحيّر في أحيان كثيرة، إذ لا يرتدّ إلى مصدر الصوت الأول ليؤكّد عليه إنّما لأجل نفيه. ويتمثل ذلك خاصة في اللوحات التي تعنى برسم الوجوه "البشرية" الدائمة، فهي تارة تنضح بضربات الشقاء التي تعرض لها صاحبها، وتارة هي وجوه تشي بطاقة إجرامية مُرعبة يصعب تحديد مفاعيلها، ولكن يسهل الوصول إلى مُحركاتها الناطقة في لوحات سابقة لها. ونخص بالذكر هنا اللوحات التي تبدو فيها الأفواه وكأنها تعرّضت للتحطيم، أو هي أنجزت للتوّ من أجل التهام ضحية ما (لا شيء يمنع من أن تكون الذات) لا تزال دماؤها ندية.

وربما يخلص مُشاهد لوحاته هذه، إلى أن ما أراد الفنان التعبير عنه شعوريا أو لاشعوريا هو التأكيد على "وحدة الحال" التي تجمع بين الاثنين: مُتلقي الشقاء ومُسبّبه. وحدة حال تتمثل بوحشية منفرة ومُشتركة، يتناوب على تظهيرها الظالم والمظلوم مداورة.

وتحيلنا هذه الأفكار إلى ما كتبه يوما الروائي جورج أورويل في رائعته "مزرعة الحيوانات" حيث قال "الحرب هي الحرب، ولن تجد في البشر إنسانا صالحا إلّا الموتى منهم!"، ومفهوم الحرب في لوحات الفنان عبيدة فياض هو مفهوم شامل كامل: إنها الحرب ضد الذات وضد الآخر وضد الوجود.

أما "الحرب" في لوحات عبدالحميد فياض فربما هي أكثر حزما وحسما لوقوفها إلى جانب الضحية في وجه القاتل.

وقد رسم الفنان عبيدة فياض "مزرعة" ليست أقلّ شراسة وصدقا من مزرعة جورج أورويل. لوحات أبطالها الذئب، والديك، والخنزير، والطيور الجارحة، والكلب... هؤلاء، يستحيل لمُشاهدهم في لوحاته أن يراهم بوصفهم حيوانات عادية، ويستحيل أيضا أن تتبنى أمامهم أي موقف، أكان تعاطفا أم نفورا وإدانة.

أما الفارق الثاني بين نص الفنان عبدالحميد فياض والفنان عبيدة فياض فيتمثل بمفهوم الحركة. فكما ذكرنا آنفا، في لوحة الفنان الأب، هناك حرارة كامنة، خاصة في تلك "المُغمّسة" باللون الأخضر أو الأزرق.

وهذه الحرارة الكامنة في عمق اللوحات هي "الهدير" الأصمّ الذي لا يتلقّفه إلّا المُصغي إليه، كالمنصت خلف المرشحات اللونية على أسرار ليس بقادر على فهمها أو على تحمّلها.

أما لوحة الفنان عبيدة فياض فتضجّ بحركة داخلية ومُعلَنة في آن واحد. ضجيج نعثر عليه خاصة في الوجوه الإنسانية المتحوّلة، التي لا ترسو في لوحة واحدة على شكل مُحدد. تبدو الوجوه التي يرسمها كطين غليظ وملوّن معجون بأنواع السموم التي تلقتها الوجوه ذاتها، والتي رشحت عنها تاليا.

ومن الأحزان الشخصية التي لم يتح لها أن تتشكّل جليا لتجد طريقها إلى لوحاته، ابتداء من أثر الحرب السورية وسموم الغاز الملقى على أهل البلد، فالعينين المُقعّرتين أو الأخريين الغائرتين اللتين حوّلتا صاحبها إلى مهرج بتعابير فجّة ومخيفة، وصولا إلى زمن وباء كوفيد – 19 الذي أثار الرعب وكرّس الوحدة التي أسّست لها السنوات السابقة، حيث باتت الأقنعة الصحية في لوحات الفنان تدرّجا طبيعيا ومنطقيا لمسار إنساني طويل.

أقنعة وقائية ليست دخيلة البتة على عالم إنسان الفنان عبيدة فياض المطلوب منه أن يحمي ذاته من الآخر ويحمي الآخر منه، بل هي جزء من وجهه ومن دونها يحدث التشويه، وصولا إلى.. أنسنة الإنسان.

في قرارة نفسه يتبنى إنسان الفنان عبيدة فياض ما عبّر عنه بوكسر في رواية "مزرعة الحيوانات"، وكانت عيناه ممتلئتين بالدموع، حين قال "لا أملك الرغبة في الحياة، ولا حتى في الحياة البشرية".

أفواه بدماء ندية انتهت للتوّ من التهام ضحاياها

تجربة رائد المفاهيمية في الفن العربي بين دفتي كتاب

«فنان العمل الواحد».. إصدار إماراتي يروي مسيرة الفنان حسن شريف

عبر تجربته الممتدة من بداية سبعينات القرن الماضي حتى وفاته عام 2016 مثّل فن الإماراتي حسن شريف انعكاسا للتغيرات التي طرأت على المجتمع الإماراتي والمنطقة العربية ككل، وفرضت تجربته نفسها كرافد جديد ومختلف عن الفكرة السائدة، عصرئذ، حول مفهوم العمل الفني في صورته الكلاسيكية. وتقديرا لتجربة هذا الفنان الرائد أصدرت مؤسسة الشارقة للفنون كتابا جديدا يتناول تجربة الفنان الإماراتي الراحل؛ حرّرت الكتاب وقدّمت له الشيخة حور بنت سلطان القاسمي رئيس المؤسسة.

الراحل استخدم المهمل وحوله إلى عمل فني

أبوظبي – يعدّ الفنان التشكيلي الإماراتي الراحل حسن شريف (1951 – 2016) من الجيل الأول الذي أسّس للحركة التشكيلية الحديثة في الإمارات بل وفي العالم العربي بشكل عام، حيث حقّق مكانة مهمة في الفن من خلال توجهه إلى المفاهيمية المطلقة.

ولأن مسيرة الفنان الراحل تعدّ استثنائية بكل المقاييس الجمالية المحدثة في الفن العربي المعاصر أصدرت مؤسسة الشارقة للفنون كتابا استقصائيا جديدا يتناول تجربة الفنان الإماراتي الراحل حسن شريف، رائد المفاهيمية الذي خطّ مسارا جديدا ومغايرا في حركة التشكيل الإماراتية، منتجا رؤى جمالية وفلسفية تتجاوز البنى والأطر التقليدية نحو آفاق أرحب في التعاطي مع مفهوم الفن وآليات إنتاجه وعرضه وتلقيه.

المنجز الفني للراحل قدّم رؤى جمالية وفلسفية تتجاوز البنى والأطر التقليدية نحو آفاق أرحب في التعاطي مع مفهوم الفن

ويأتي الإصدار الجديد في سياق برنامج النشر في مؤسسة الشارقة للفنون، وضمن سعيها للتعريف بأهم التجارب الإبداعية الريادية التي شكلت إضافة نوعية للمشهد الفني المحلي والدولي.

عن التكرار وأبعاده

يحمل الكتاب عنوان "حسن شريف: فنان العمل الواحد"، وهو من إصدار مؤسسة الشارقة للفنون ودار كوينغ بوكس في لندن، حرّرته وقدّمت له الشيخة حور بنت سلطان القاسمي رئيس المؤسسة، التي عملت على تقييم أكبر معرض استعادي لأعماله أقيم في الشارقة عام 2017، والذي يواصل عرضه هذا العام في عدد من المدن الأوروبية ضمن جولة تنظمها المؤسسة بالتعاون مع معهد كي دبليو للفن المعاصر في برلين، وغاليري مالمو كونستهال في السويد.

وعبر ما يقارب 350 صفحة من القطع الكبير، يسبر الكتاب ممارسات حسن شريف الفنية متعددة التخصّصات، ويشمل أعمالا مفقودة، وترجمات إنجليزية لكتاباته الصحافية والتجريبية، إلى جانب مواد أرشيفية من معارض وأحداث، وكذلك حوارات ووجهات نظر معاصري شريف في الإمارات.

ويطالع القارئ في مطلع الكتاب مقالة "أنا فنان العمل الواحد" التي كتبها شريف سنة 1989، ومنها استُمد عنوان الكتاب، وفيها يناقش شريف ما يؤخذ على أعماله من أنها تحمل سمة التكرار، وهو القائل "يعتقد بعض المهتمين بأعمالي الفنية أنني أقوم بتكرار المواد التي أستخدمها وبتكرار الأشكال التي أنتجها. لتوضيح ذلك أحب أن أقول: إن أعمالي متكرّرة في المواد والأشكال وغير متكرّرة في الوقت عينه".

لقد شكّل التكرار جزءا أساسيا من أعمال شريف، فهو يرى أنه حتى وإن تكرّرت المواد نفسها في أكثر من عمل فإنها من المستحيل أن تتشابه في طريقة وزمن تشكيلها، وأن التكرار مسألة صحية لا تنقص من اشتغال الفنان، حيث كتب موضحا "أنا أحب التكرار، فأن يقوم الفنان بتكرار إنتاج عمل واحد على مدى الحياة فتلك مسألة صحية، إذًا ليس ثمة في الفن قانون يمنع الفنان من الجلوس في ركنه".

وواصل "الفنان يجلس في زاويته الخاصة وقد نسميها 'زاوية الفن' ويقوم بتكرار وإنتاج عمل واحد طوال حياته. ليس هناك من عملين فنيين لفنان واحد.. هذا مستحيل. جميع أعمال الفنان سواء كانت لوحة مرسومة بالحبر الأسود، أو لوحة زيتية، أو قطعة نحت، أو أي شيء مصنوع أو مركب.. جميعها عمل واحد.. دع الفنان يجلس في زاويته الخاصة ويلف خيط 'سوتلي' على قطع من قماش الخيش.. تراه يغرق في التكرار، والتكرار ليس ممنوعا".

وفي القسم الأخير من الكتاب يجد القارئ أيضا نسخة بخط اليد لكتاب "مفهوم الفن" الذي أصدرته دائرة الثقافة والإعلام في الشارقة عام 1997، وتضمن قراءة ثلاثة فنانين إماراتيين، هم: حسن شريف ومحمد أحمد إبراهيم ومحمد كاظم في بعض الأعمال الفنية البصرية التي عرضت ضمن بينالي الشارقة الثاني، وهي محاولة لإضافة ثقافة جديدة ومختلفة عن الفنون البصرية إلى ساحة الإمارات وتزويدها بقراءة معمّقة عن الأعمال الفنية ونقدها وتحليلها، بالإضافة إلى مناقشة العديد من المفاهيم مثل "طبيعة الفن" و"وظيفة الفن"، وكذلك دور الفنان والمؤسسات الثقافية في خلق الثقافة البصرية عند المشاهد وتطوير حسّه النقدي حتى لا يبقى أسير فهم واحد للفن.

ولا يسعى هذا الكتاب إلى تسجيل أعمال شريف الفنية ضمن إطار زمني أو عرضها في شكل كاتالوغ نموذجي، بل هو عمل تجريبي يعكس ممارسته، وينسج سردياته الشخصية من الزوايا المختلفة في حياته المهنية، مقدّما مصدرا حيويا للدراسة العلمية والتقييمية في ممارسة الفن المعاصر، ومرجعا لكيفية انتقال الأفكار الثقافية، وكيف يتم تحويلها خلال عملية الانتقال هذه.

وهو أيضا لمحة عن أعماله المشحونة والمفعمة بالحيوية باعتبارها نقدا واحتجاجا على الواقع أو كما كان يصفها شريف "وسيلة للفرار من أنفسنا، لأننا لم نستطع وضع الواقع الحالي في موضعه الصحيح والملائم".

ويتوفّر كتاب "حسن شريف: فنان العمل الواحد" في أمازون، وعدد من المراكز الفنية والثقافية والمكتبات في الإمارات، بالإضافة إلى متاجر مؤسسة الشارقة للفنون في ساحة المريجة ومبنى الطبق الطائر.

كما تتولى كوينغ بوكس الطلبات الدولية للكتاب من خلال متاجرها وموقعها على الإنترنت. ويتم توزيعه في الأميركيّتين من خلال ديستربيوتد آرت ببليشيرز، نيويورك.

والشيخة حور بنت سلطان القاسمي، محرّرة الكتاب، قيّمة وفنانة، عملت على تقييم العديد من المعارض الفردية لعدد من الفنانين، أبرزهم: طارق عطوي (2020)، زارينا بهيمجي (2020)، أمل قناوي (2018)، حسن شريف (2017)، يايوي كوساما (2016)، روبرت بربر (2016)، فريدة لاشاي (2016)، رشيد أرائين (2014)، سوزان حفونة (2014).

كما شاركت القاسمي في تقييم معرض "جوانا حاجي توما وخليل جريج: شمسان في المغيب (2016)"، إلى جانب عدد من المعارض الاستقصائية الكبرى من ضمنها "حين يصبح الفن حرية: السرياليون المصريون (1938 – 1965)" في عام 2016، و"مدرسة الخرطوم: حركة الفن الحديث في السودان (1945 – الحاضر)" والذي امتد ما بين عامي 2016 و2017.

فيلم توثيقي

سبق أن أعدّت المخرجة الإماراتية نجوم الغانم فيلما تسجيليا عن حياة الفنان تحت عنوان "آلات حادة" تم إنتاجه سنة قبل رحيل حسن شريف.

واستطاعت الغانم من خلال مواهبها السينمائية والتشكيلية والشعرية إنتاج فيلم من تأليفها وإخراجها، ينبض بالروح ويرسم بالألوان ويعزف بالموسيقى مسيرة واحد من مؤسسي الفن التشكيلي في الإمارات.

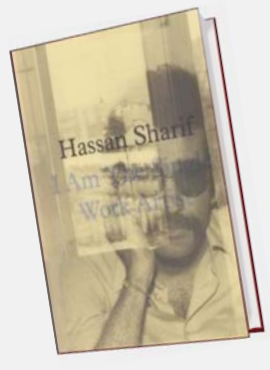

الكتاب يسبر ممارسات حسن شريف الفنية متعددة التخصّصات، ويشمل أعمالا مفقودة، وترجمات إنجليزية لكتاباته الصحافية والتجريبية

وبدأت معرفة نجوم الغانم بحسن شريف في عام 1982 تقريبا في مرسم المريجة بإمارة الشارقة. وكان التقارب في أفكارهما عن الفن الحديث والشعر الحديث والفكر الحديث سببا في سعيها لإنجاز هذا الفيلم.

حسن شريف كان يقرّ بأن أعماله متكرّرة في المواد والأشكال وغير متكرّرة في الوقت عينه، وهو تكرار صحي لا ينقص من اشتغال الفنان

وقالت المخرجة الإماراتية عن التجربة "كنت أريد صنع هذا الفيلم قبل ثلاث سنوات أو ربما أربع لكنه كان متردّدا، اتفقت معه على أن نبدأ على الأقل في المقابلات الصوتية، وبدأنا، وفي أثناء التسجيل بدأ يتحمّس للأمر. لكن عندما خضنا في التفاصيل وشرحت له كيف نريد أن نتناول الفيلم، شعر ببعض التردّد، وبعد مرور بعض الوقت وجدته يتصل بي ويدعوني إلى استكمال الفيلم".

وأضافت "أعتقد أنه عندما علم أنه مريض أراد الانتهاء من الفيلم الذي بدأناه قبل فترة، وقال: دعينا نبدأ".

ويُظهر الفيلم شريف وهو يتحدّث عن طفولته وأمه ومراحل تعليمه وبعثته إلى بريطانيا لتعلم الفنون، ثم عودته إلى الإمارات، كما يظهره وهو يتحدث عن مشوار صعب خاضه من بداية الثمانينات حتى وفاته لنشر أفكاره وأعماله التي شكّلت نقلة كبيرة في مفهوم الفن التشكيلي بالخليج.

واستلهمت الغانم عنوان الفيلم "آلات حادة" من أدوات شريف في تطويع مواد مثل الأخشاب والمعادن والأسلاك والحبال لإنجاز أعماله التشكيلية.

ولم تترك نجوم الغانم أداة من أدوات الفن التي استخدمها حسن شريف إلاّ وسخرتها في الفيلم بداية من صوره الفوتوغرافية مرورا بأستوديو أعماله ولوحاته ومجسماته التشكيلية، وانتهاء بموسيقاه المفضلة التي وضعتها كموسيقى تصويرية.

ونجوم الغانم مخرجة إماراتية من مواليد مدينة دبي عام 1962، وهي أديبة وشاعرة، شغلت منصب مدير الإعلام الجديد في مؤسسة الإمارات للإعلام، وعضو مجلس إدارة في هيئة أبوظبي للثقافة والتراث.